أقطاب الاسلام لاصدقاء الطلاب

عمرو بن العاص (١)

لحسن حسن على

— ١ —

يقول المؤرخون ان عمرو بن العاص داهية من دواهي العرب، والداهية : هو الرجل ذو الدهاء والفكر الناضج والعقل الممتاز، فاذا قلنا ان عمرو بن العاص داهية من دواهي العرب، فمعنى ذلك ان عمراً من أشد العرب دهاء، وأوسعهم حيلة وأوفرهم ذكاء، وأحدهم ذهناً

ونحن لن نتعرض لتاريخ عمرو بن العاص من مبدأ حياته الى منتهى اجله، فان ذلك امر يطول شرحه علينا وعليكم، وانما نريد ان نعرف كيف كان عمرو بن العاص داهية من دهاة العرب؟ وما هي الحقائق والوقائع والحوادث العملية والنظرية التي جعلت عمراً من دهاة العرب الممتازين

وُلد عمرو بن العاص في مكة، وكانت تسكن مكة قبيلة ضخمة تعرف بقريش، ولم تكن قريش في مكة ذات حكومة منظمة وقوانين موضوعة كشأن الحكومات المعروفة في عصرنا هذا، وانما كانت قريش منقسمة الى عشائر وبطون واقسام يتولى كلُّ قسم منها فرعاً من فروع الحكم، فكان منها جماعة يعرفون ببني الدار، وكانوا يتولون حمل الراية في وقت الحرب، وكان منها جماعة يعرفون ببني هاشم، وكانوا يتولون سدانة الكعبة، وسقاية الحجيج، وهؤلاء هم رهط النبي صلى الله عليه وسلم، وكان منها جماعة يعرفون ببني سهم، وكانوا يتولون القضاء والحكم فيما يقع بين الناس من الخصومات، وهؤلاء هم عشيرة عمرو بن العاص، ولا بدَّ ان بني سهم هؤلاء كانوا على شيء كبير من الدهاء والذكاء، لان القاضي محتاج بحكم وظيفته الى عقل ذكي حاد حتى يعرف به موضع الحق من موضع الباطل، ولا بدَّ ان يكون ذا لباقة وحصافة ومقدرة على التصرف في الامور حتى يداري المحكوم عليه اذا كان ذا سطوة وشوكة ونفوذ، ولا سيما في هذا الزمان الثائر الذي لا يدين الا للقوة

(١) من المحاضرات التي تلقى في بهو المحاضرات بمدرسة الجالية الابتدائية الاميرية

وعلى هذا فبنو سهم أجداد عمرو بن العاص وآباؤه واهله وعشيرته كانوا ذوي ذكاء ودهاء بحكم مركزهم القضائي في قريش ، فلا عجب ان يأتي منهم عمرو بن العاص الذكي الداهية ، ومن يشابه آباءه وأجداده فما ظلم

ومما زاد هذا الذكاء حدة وهذا العقل نضوجاً واتساعاً ، ان عمرو بن العاص اشتغل منذ حداثته بالتجارة ، فكان يذهب في رحلة الشتاء الى بلاد اليمن وبلاد الحبشة فيشتري من هذه الاقطار الطيب والجلود والعطور ، ثم يذهب بها في رحلة الصيف الى مصر وبلاد الشام ، فيبيعها هناك ، ويشتري من هذه الجهات الحنطة والمنسوجات والمصنوعات والزيت ، وبلاد الشام حتى هذه الساعة مشهورة بالزيت

ويقال ان اول رحلة قام بها عمرو بن العاص الى مصر ذات سبب عجيب ، وذلك انهُ خرج مرة مع جماعة من اصحابه الى تجارة في بيت المقدس ، فكانوا يحملون بضائعهم بالضرورة على الجمال ، وكانوا يسافرون من بلادهم الى بيت المقدس على الجمال ، فاتفقوا أن يخرجوا وهم في بيت المقدس إلى الاسواق للبيع والشراء ويتخلف في كل يوم واحدٌ بالتناوب ليرعى هذه الجمال في المراعي بين الجبال ، وبينما عمرو بن العاص يرعى الجمال وسط الجبال ابصر شماساً مصريًّا ؛ والشماس رجل لهُ وظيفة دينية صغيرة بالكنيسة . ابصر هذا الشماس وقد اجهده التعب ، وأضناه الحر وأهلكه الظمأ ، فلما رآه عمرو يكاد يموت من العطش أسقاهُ بقدح من الماء ، فأحيا بذلك مواته ، ولما انس به الشماس نام بالقرب منهُ ، الاَّ ان الشر والتحس كان يلاحقه ، فقد خرجت حية كبيرة من جحرها واتجهت نحو هذا الشماس النائم لتفتك به ، ولكن عمرو بن العاص شكها بسهم صائب فقتلها ، ولما استيقظ الشماس وعلم بذلك قام الى عمرو فشكره وقبل رأسه ، وقال لهُ لقد احياني الله بك مرتين : مرة من العطش ، ومرة من هذه الحية ، فلك اليوم عندي ديتان والدية الف دينار . ثم قال الشماس لعمرو ولكني الآن رجل غريب فقد سافرت من الاسكندرية الى هنا لاني قد نذرت لله ان اصلي في بيت المقدس وان اطوف في جبالها شهراً ، وقد وفيت نذري وانا الآن صفر الكف ويدي خالية من النقود ، فان اتيت معي الى مصر فلك عهد الله وميثاقه ان اعطيك الف دينار جزاء لك على ما فعلت ، فلما احس عمرو من كلام الشماس الصدق ووثق من كلامه ، استأذن من اصحابه وسافر معهُ الى الاسكندرية ، فأكرمهُ الشماس غاية الاكرام ، وألبسهُ ثوباً من الحرير ، وقدم لهُ المبلغ ، واتفق في ذلك الوقت ان اهل الاسكندرية كانوا يقومون باحتفال عظيم سنوي ، اذ يجتمع الحكام والعظماء ، والقواد في ميدان كبير ، ويتقاذفون بكرة مرصعة من الذهب ، ويتلقفونها بأكفهم ، فاذا استقرت الكرة في كف واحد منهم فلا بدّ ان يأتي عليه يوم يكون فيه حاكماً على مصر ، وبينما كان عمرو مع الشماس يشهد هذا

الاحتفال اذ بالكرة تهبط وتستقر في كم عمرو بن العاص ، فدهش الناس وتعجبوا وقالوا اذا كانت هذه الكرة قد صدقتنا في أيامها الماضيات ، فقد أخطأت هذه المرة خطأً ظاهراً . لانهم استبعدوا ان يكون هذا الفتى البدوي الصغير أميراً عليهم في مستقبل الايام

ولم يعرفوا انهُ عمرو بن العاص الفاتح العظيم الذي سيغزو بلادهم مرتين مرة قبل الاسلام ومرة في ايام علي

وعلى كل حال فان هذه الرحلات التجارية التي قام بها عمرو بن العاص في الجاهلية قد زادت ذكاءه حدة ، وعقله نضوجاً ، وامدتهُ بكثير من التجارب والمعلومات ، لان اختلاطه بالاجناس الاجنبية ، واطلاعه على بلادهم واخلاقهم وعاداتهم امدهُ بكثير من الافكار والتجارب التي لم يكن ليتيسر لهُ أن يعرفها في بلاده

ولما اراد ان يتجر في بلاد الحبشة ركب البحر في سفن تجارية مع شريك يقال لهُ عمارة وقد ركبوا السفن ليعبروا البحر الاحمر ، ويصلوا الى الحبشة لدى الشاطيء الافريقي ولكن عمارة شريك عمرو كان رجلاً سفيهاً فاسد الاخلاق ، وكان مغرماً بالتحدث مع النساء ، فأراد مرة ان يتحدث مع زوجة عمرو ولكن المرأة احتقرتهُ ولم تحدثهُ اما عمرو بن العاص فقد اعتبر هذا من عمارة اهانة عظيمة لا بدّ ان ينتقم بسببها منهُ انتقاماً رادعاً ، ولكنهُ ماذا يفعل بعمارة وهما بين الماء والسماء . ايقذفهُ في البحر ؟ ايقتلهُ بالسيف ؟ إنهُ لو فعل ذلك لتقدمت اليه عشيرة عمارة بسيوفها لتقتلهُ حتى تأخذ بثأر عمارة ، فكأنهُ قد قتل نفسه حين قتل عمارة ، إذاً فليصبر عمرو ساتراً غيظه والايام وحدها هي التي تهيء لهُ الفرص المناسبة للانتقام من شريكه السفيه

ذهبا الى النجاشي في بلاد الحبشة فقدما اليه أحسن التجارة فاشترى منها ثم أنعما الى الرعية فباعا واشتريا وكثر ربحهما وزادماهما ، ولكن عمارة شريك عمرو كانت أخلاقه السيئة تلازمه اينما حل ، فرأى زوجة النجاشي فحدثها فحدثتهُ ، وصار في كل يوم يذهب اليها ليحدثها ثم يأتي الى عمرو بن العاص فيخبره بذلك فيقول له عمرو ان هذا امر لا اصدقهُ واظن انك مبالغ في خبرك ، وان زوجة الملك لا تحدث امثالنا فيؤكد لهُ عمارة القول ، ويقسم له اغلظ الايمان انهُ يحدث زوجة النجاشي ، وهنا يضغط عمرو على اسنانه ونواجذه لانهُ وجد الفرصة السانحة للانتقام من عدوه ثم يقول له إذا اردت ان اصدقك فيما تدعي فاحضر لي شيئاً من بيت الملك مما لا يستعمله الاّ الملك ، فان فعلت عرفت انك حقيقة تدخل في بيت الملك ، فقال لهُ عمارة: ما اسهل هذا الامر عليَّ ، وما اهونهُ ، ثم انطلق الى زوجة الملك وحادثها كعادته ، ثم قال لها طيبيني من الدهن الذي يتعطر منه الملك ، فطيبتهُ ثم قال لها اعطي قارورة من هذا العطر حتى ادهن منها اذا كنت في الخارج ، فأعطتهُ قارورة من العطر ، فذهب عمارة وهو نافخ أوداجه

يتيه عجباً واختيالاً بما فعل ، ثم تقدم الى عمرو بن العاص وقال له هذه ثيابي فشمها ، وهذه قارورة من العطر الذي لا يدهن به الا النجاشي خذها هدية مني اليك ، فقال له عمرو حقاً انك تحدث زوجة الملك وقد اقررت لك بالمقدرة وحسن الحيلة

ولما انصرف عمرو من مجلسه ، ذهب الى النجاشي وقال له ايها الملك العظيم إني أخشى ان يصلني سوء منك بسبب شريكي العربي فقال له النجاشي وما سبب ذلك ، فقال عمرو إن عمارة شريكي رجل سفيه شرير ، وكثيراً ما اخبرني انه يذهب الى زوجة الملك ويتحدث معها ، ولكني في بادىء الامر لم أصدق دعواه ، فلما احضر لي من الملكة قارورة العطر الذي لا يدهن منه الا الملك أيقنت من الخبر ، وجئت اليك متبرئاً من عمله ، وهذه هي قارورة العطر ، فلما رآها النجاشي غضب غضباً شديداً ، وأى بعمارة فشم في اثوابه رائحة العطر فأراد ان ينتقم منه انتقاماً مرّاً أليماً فاذا يفعل به . انه افسد له بعض اعضائه وهو حي ، واتلف له هذه الاعضاء إتلافاً تامّاً ، وكان جزاؤه من جنس العمل

وهكذا انتقم عمرو بن العاص من خصمه انتقاماً مرّاً أليماً من غير ان يلقيه في البحر او يقتله بالسيف او يعرض نفسه للقتل ، وهكذا ألقى على عمارة درساً قاسياً في الاخلاق لم ينسه طول حياته ، وهكذا استطاع عمرو ان يصرع خصمه بحيلته ومقدرته وذكائه

ولما هزم الله الاحزاب في غزوة الخندق ، وسلط عليهم ريحاً عاصفة قوضت خيامهم ، وكفأت قدورهم ، وتفرقوا الى بلادهم ، فكر عمرو بن العاص في هذا الامر فأدرك ان النبي صلى الله عليه وسلم ، لا بد ان ينتقم من قريش ، ولا بد ان تجازيها حرباً بحرب ، وتمكين بفتح مكة قبل أن يدخلها النبي بأزمنة طويلة ، فقال في نفسه اذا وقعت هذه الحرب ، وانتصر محمد على قريش فلا بد أن يرد عزيزها ذليلاً ، فلأذهبن الى النجاشي في الحبشة فان انتصر محمد فأنا بمنجاة من الشر ، وإن انتصرت قريش فليس لي عند قومي الا الخير

ثم اخذ هدية الى النجاشي وقدمها اليه ، فتقبلها قبولاً حسناً ، ولكن عمرو وجد عند النجاشي رجلاً من اصحاب النبي فحدثه في شأنه فقال له النجاشي ان هذا الرجل آت من النبي الذي تنزل عليه الملائكة ويأتيه الوحي وإن دينه لحق ، وهنا تغير رأي عمرو تغيراً تامّاً لانه تمكن بعقله النافذ ان يخترق الحجب ويسابق التاريخ ويستكشف المستقبل من وراء حجاب فقال في نفسه إذا كان هذا الدين على حداثة عهده قد آمنت به الملوك فضلاً عن الرعية ، وإذا كان قد وصل الى البلاد الخارجية فضلاً عن جزيرة العرب ، فلا بد ان يعم هذا الدين البلاد العربية ولا بد ان يدين اهل مكة طوعاً او كرهاً فبدلاً من ان ادخل هذا الدين كارهاً فلا بد من ان ادخل طائعاً ، وعليّ ان اسرع في ذلك حتى اكون من السابقين ، ثم انقلب عمرو راجعاً الى

بلاد الحجاز لم يرجع عمرو الى مكة مقر عشيرته ، وانما رجع الى النبي فأسلم على يديه وحسن إسلامه

وهكذا لم يسلم عمرو كما اسلم غيره من العرب بل اسلم بعد موازنات شتى ، وبحوث مستفيضة ، ومقارنات ذهنية كشفت لهُ ما يكنهُ مستقبل الاسلام الباهر . ولما ارسله ابو بكر رضي الله عنهُ على رأس جيش من الجيوش الاربعة لفتح بلاد الشام اشتغل في هذه الحروب بهمة ونشاط ، ولما توفي ابو بكر رضي الله عنهُ رأى عمر بن الخطاب ان على فلسطين قائداً من الروم لم يسمع الناس بمثله في الدهاء والمكر وسعة الحيلة ، وكان يقال له ارطبون ، وكان ارطبون في الروم بمنزلة عمرو بن العاص في العرب فأمر عمر بن الخطاب عمرو بن العاص ان يتجه الى فلسطين ليحارب ارطبون ، وقال : رمينا ارطبون الروم بأرطبون العرب ، فلننظر عمَّ تنفرج . ومعنى ذلك اننا ارسلنا الرجل الماكر من العرب ليحارب الرجل الماكر من الروم وسننظر ايغلب ماكر الروم أم ماكر العرب

***

اما عمرو بن العاص فقد وجد ان ارطبون قد وضع لفلسطين خطة حربية محكمة ومن الصعب ان يتغلب عليها اي قائد حربي ، وذلك انهُ عسكر بجيش كثيف في مدينة اجنادين مركز فلسطين وجعل في كل مدينة حامية قوية تدافع عنها اذا هاجمها العدو ، والشأ بين هذه البلاد مراسلات سريعة ، بحيث اذا اغار العدو على اية مدينة ففي الحال ينتقل الخبر بهذه المراسلات السريعة ، ويتوالى ورود المدد على المدينة المحصورة ، فيصبح الجيش المهاجم بين قوة المدينة الاصلية ، وبين الامدادات المتوالية ، فتحل به الخسارة ، وبهذه الخطة الحربية المحكمة تمكن الارطبون من الوقوف امام المسلمين وصدهم مدة طويلة

ولكن عمرو بن العاص لا بدّ ان يفسد على الارطبون خطته فاذا فعل ، انهُ اتى بفصائل خفيفة قليلة العدد هي اشبه بالعصابات ، وسلط على كل مدينة فصيلة من هؤلاء الجند ليغيروا عليها حتى يشغلها امرها عن غيرها ، لانها تعرف انها لو ذهبت جنودها لنجدة غيرها ، فان الاعداء الذين يهاجمونها لا بدّ ان يحتلوها في الحال ، وبذلك تمكن عمرو بهذه الفصائل من ان يشغل كل مدينة بنفسها ، ثم تفرغ هو لمقارعة ارطبون في اجنادين ، ولكنهُ تقدّم اليه حذراً متوجساً محترساً ، لانهُ لا يحارب قائداً عادياً ، وانما يحارب داهية الروم

فأرسل اليه رسولاً يتظاهر بأنهُ يريد ان يفاوضه في شروط الصلح والحرب ، وأمره عمرو ان يتفقد القلاع ، ويعرف شكل الحصون ، ووسائل الدفاع ، ونظام الجيش ، ولكن

ارطبون داهية الروم اخفى عن الرسول كل امر وفطن الى مهمته الحقيقية ، فأرسل عمرو رسولاً ثانياً وثالثاً فلم يهتد احدهم الى شيء ، فعزم عمرو ان يذهب بنفسه ليتفقد جيش عدوه وحصونه متنكر في زي رسول من الرسل ، فاراد ارطبون ان يخفي على عمرو كل شيء كما فعل مع الرسل السابقين

ولكن عمرو بن العاص ما زال يحاوره ويداوره ، ويقوده الى موقع الحصون حتى يطبق شروط الصلح على طيبة المدينة ، وما زال يجره من موضع الى موضع وهو يجوس خلال الجنود ، ويطلع على اسرار الجيش حتى اهتدى الى معرفة كل شيء . ولكن هل تظنون ان الارطبون رجل أبله انهُ تفرس في هذا الذكاء ، وهذه السياسة ، وهذه القدرة فجزم بان الذي يحدثهُ أما ان يكون عمرو بن العاص ذاته ، واما ان يكون المشيرَ الذي يشير على عمرو في الامور ، فيأخذُ عمرو برأيه

وقد وجد ان الفرصة سانحة للخلاص من عدو خطر عظيم المكر والدهاء ، فشار الى احد اتباعه ان يكمن مع جماعة لهذا الرجل في الطريق اثناء رجوعه ، فاذا مرّ عليهم قتلوه ، اما عمرو ابن العاص فقد عرف كل شيء وادرك انهُ وقع في الشرك ، وانهُ لا محالة مقتول

***

ان حيلتك وان فطنتك يا عمرو ان يملك وبين القتل ان تسير في الطريق الى جيشك ، ولكن عمراً في اقل من لمح البصر يأتي بالخدعة المدهشة ، يخاطب الارطبون في هدوء وثبات ويقول ايها الارطبون إني اصارحك القول واطلعك انني مع تسعة من العرب اصحاب الرأي والمشورة في هذا الجيش العربي الذي امامك ، وان عمراً لا يعمل شيئاً إلاَّ اذا وافقنا عليه ، وقد سمعت حديثك ، وعرفت شروطك ، ونهت رأيك ، وسأذهب الى اصحابي فآتي بهم جميعاً ، وسيسمعون حديثك بآذانهم ، ويرون شروطك بانفسهم ، فان وافقوا عليها فقد وافق عمرو بن العاص، لانهُ لا يعمل إلاَّ برأينا ، فطمع الارطبون ان يقتل عشرة من اصحاب الرأي ، وفضل ذلك على ان يقتل هذا الرجل الذكي في الوقت والساعة ، وفي الحال ارسل الى الكمين الذي رصده في الطريق ان يخلي سبيل الرجل إذا مرَّ به

ولما مضت الايام ولم يعد الرسل ، وعرف الارطبون خدعة عمرو قال خدعني عمرو هذا ادهى العالم اجمع ، ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب قال غلبهُ عمرو ولله عمرو . أما عمرو بن العاص فانهُ درس حصون الروم واسرار الجيش ، ثم فاجأ الارطبون واتاه من الموارات وتمكن من التغلب عليه ومن فتح اجنادين وبقية بلاد فلسطين